الإعجاز البياني

في القرآن

سورة الشمس

محمد مبارك المزيودي

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا
﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ
أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ
عُقْبَىٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

مقاطع السورة

أُدرجت هذه السورة في مقطعين اثنين :

1ـ جملة القسم :

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ ﴾

الشمس: ١ – ١٠

2 : شاهد جواب القسم

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَىٰهَا ١٥ ﴾ الشمس: ١١ – ١٥

قبل الشروع في التفسير والبيان لا بد من التنبيه إلى مناسبة السورة ، وهو ما يشير إليه كون السورة من القرآن المكي الذي كان مدار اهتمامه دعوة الناس إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والرد على تكذيب المشركين بهذه الدعوة ، فأقسم عز وجل في هذه السورة ، القسم المتعدد ، على قضية مواكبة لدعوة الرسل ، ألا وهي الانتقام الشديد ، في الدنيا قبل الآخرة ، من الأقوام المكذبين بدعوات الرسل .

التفسير والبيان

1ـ جملة القسم

آيات هذا المقطع عشر آيات ، أُدرجت في نظامين : التنائيات والمجموعات :

أولاً : نظام الثنائيات :

عشر آيات هي خمس ثنائيات ، كل ثنائية تذكر حداً من حدود الخلق :

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ ﴾ الشمس ـــ القمر

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ ﴾ النهار ـــ الليل

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾ السماء ـــ الأرض

﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ ﴾ النفس ـــ فجورها وتقواها

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ التزكية ـــ التد سية

الثنائية الأولى : الشمس والقمر

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ ﴾ الشمس: ١ – ٢

هذه هي الثنائية الأولى من جملة الثنائيات الخمس :

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ذكرنا مراراً وتكراراً أن الله عز وجل إذا أقسم بخلق من خلقه كان ذلك القسم دالاً على عِظَم قدْر ما أقسم به ، وأنه آية كبرى من آياته ، وها هو جل شأنه يقسم بالشمس ، بل ويجعلها اسماً للسورة . فماقيمة الشمس في معنى الوجود ؟

إنها سبب الحياة ، فلولاها لانعدمت الحياة في الأرض ، وقد ذكر الله تعالى فعاليتها في حياة الإنسان بقوله :﴿ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴾ النبأ : ١٣ ، فبضوء الشمس تقوم الحياة في الأرض ، هذا إلى جانب خصائص أخرى تحقق الاستقرار والثبات للأرض ولسائر كواكب المجموعة الشمسية ، فإذا قضى الله بانهيار نظام الحياة الدنيا كانت الشمس أساس ذلك الانهيار ، وذلك بخفوت ضوئها :﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ التكوير: ١ . وهو ما فصلنا القول فيه عند تفسير الآية المذكورة .

وعطف قوله :﴿ وَضُحَىٰهَا ﴾على الشمس يجعل ضحاها من جملة ما أقسم به جل شأنه . وقد فسره أهل التفسير بوقت الضحى الذي يكون في الأرض في الثلث الأول من النهار ، وقد عيّن الأولون ميقاته بقولهم : إذا رَمَضَت الفِصَالُ ، إي إذا حميت الأرض إلى القدر الذي تشعر به صغار الإبل . فهل هذا هو المراد بضحى الشمس ؟

ضحى الأرض وضحى الشمس

قال تعالى في صفة خلق السماء : ﴿ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ النازعات : ٢٩ والسماء التي أخرج الله ضحاها هي سماء الأرض {الغلاف الجوي} وذلك أننا إذا ارتفعنا إلى

الطبقات العليا من الغلاف الجوي فلن نجد فجراً ، ولا ضحى ولا غير ذلك من تقسيمات النهار ، لن نجد شيئاً سوى الظلام ، أي أن ضحى السماء هو ذلك الضحى الذي ينشأ عن خصائص تكوين الطبقات الدنيا من الغلاف الجوي ، ويشهده الناس في الأرض . أما قوله تعالى : ﴿ وَضُحَىٰهَا ﴾ فقد أُضيف فيه الضحى إلى الشمس ، فهو ضحى خاص بها ، فكيف ذلك ؟

حُكْم السياق

سياق الآيات بصدد ذكر أركان تكوين الحياة الدنيا : الشمس ، القمر ، الليل ، النهار ، السماء ، الأرض ، الإنسان ... فالسياق ، وفقاً لتلك الشواهد ، ليس بصدد الالتفات إلى جزء من أجزاء النهار ، وهو ما يستدعي أن يكون ضحى الشمس ركناً أساساً من أركان بناء الحياة الصالحة لمعاش الإنسان في الأرض ، وفي هذه الحالة لا سبيل إلى نسبة الضحى إلى الشمس على الوجه المشهود في الأرض ؛ لأن الشمس لا يعتريها ليل ولا نهار ، فهي جِرْم ملتهب ومضيء أبداً . وهنا لايبقى لنا من دلالة الضحى ما تجوز نسبته إلى الشمس سوى النسبة الزمنية ، وذلك أن الضحى الكائن في الأرض محصور في أول النهار ، وهو نهاية ثلثه الأول ، وكذلك هو الشأن مع ضحى الشمس ، وهو الحد الزمني الذي أصبحت فيه الشمس صالحة لوجود الإنسان في الأرض ، وهو نهاية الثلث الأول من عمرها الإفتراضي :

تبين لعلماء الفلك أن النجوم لها ميلاد وموت ، والشمس نجم من النجوم ، قدَّر العلماء المدة التي مضت على ميلادها بـــــ {4،6} مليار سنة ، والمليار الواحد مقداره ألف مليون ، والإنسان لم يمض على وجوده في الأرض إلا جزء يسير جداً من هذه الألف ، أما قبل ذلك فلم يكن له وجود ، لأن الحدين : الحراري والإشعاعي للشمس عند ميلادها لم

يكونا مناسبين لتحقيق معنى الحياة للإنسان ، أي أنها لم تبلغ هذه الصلاحية إلا مع ضحاها ، أي مع انقضاء الثلث الأول من عمرها المقدر لها كنجم من النجوم ، وذلك قياساً على زمن الضحى في جملة النهار ، وبذلك يكون ضحى الشمس ركناً أساساً من أركان تمهيد الأرض لمعاش الإنسان .

ومع ذلك فإن الأمر لا يخلو من جواز إسناد الضحى الكائن في الأرض إلى الشمس ، وذلك من باب أنها الأصل الذي نشأت عنه ظاهرة الضحى ، فالضحى جزء من النهار ، والنهار أثر من آثار الشمس .

﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ القمر شقيق الشمس ؛ لأنهما الجِرْمان الوحيدان اللذان يتناوبان الأرض ليلاً ونهاراً ، والقَسَم بالقمر بعد القسم بالشمس وضحاها يشير إلى أن القمر له دور في معنى حياة الإنسان مثلما هي الشمس وضحاها ، والضمير في ﴿ تَلَىٰهَا ﴾ يعود للشمس ، أي أن االقمر يأتي تالياً لها ، إذ تحتل الشمس صفحة السماء ، فإذا غربت تلاها القمر في احتلال هذه الصفحة ، فإذا كانت الشمس ، بما يشير إليه لفظ {ضحاها} من دلالة الضوء والحرارة ، تمد الأرض والإنسان بعنصرين رئيسين من عناصر الحياة ، فإن ذكر القمر بأنه يتلوها يستدعي أن يكون له أيضاً دور في معنى الحياة ، إلا أنه دور يأتي على وجه مخالف لدور الشمس ، وذلك بالنظر إلى أن تلك الثنائيات الخمس تذكر الشيء ومقابله ، الليل يقابل النهار ، والسماء تقابل الأرض ، والنفس السوية تقابل ما أودع فيها من فجور وتقوى ، وقوله {زكاها} يقابل قوله {دساها} وكذلك هو الشأن مع الشمس والقمر . ولبيان دور القمر في معنى الحياة نذكر ما يلي :

<> تؤثر الشمس في الأرض عبر ثـــلاث مسارات : الضوء والحرارة والـــجاذبية ، وبهذه

المسارات يتم بناء الحياة في الأرض ، والقمر يتصل بالأرض عبر مسارين : الضوء والجاذبية ، فما أثر هذين المسارين في الأرض ؟

إن نسبة الضوء والجاذبية المنبعثين من القمر نسبة ضئيلة ، تكاد أن لا تذكر أمام ضوء الشمس وجاذبيتها ، بل إن جاذبية القمر أقل حتى من جاذبية الأرض ، وهذه النسبة الضئيلة قد توحي بأنه لا أثر لضوء القمر وجاذبيته في الأرض ، فهل ذلك كذلك ؟

من الثابت الذي لا يختلف عليه اثنـــان أن ظاهرتي المد والجزر في البحار مرتبطتان بالقمر ، وقد ذكر ابن سينا أن موضع الارتباط هو ضوء القمر ، وذلك عند ذكر العلاج بالحجامة ، فمع اكتمال القمر تكتمل إضاءته فيحدث المد في البحار . وبما أن الإنسان ظاهرة طبيعية من جملة المظاهر الطبيعية في الأرض فلا مجال أمامه إلا أن تكون طبيعته خاضعة لتأثير اكتمال القمر ، وهو ما لاحظه الأطباء في أمر الحجامة ، وأحسب أن تأثير القمر حال اكتماله هو ما تم الالتفات إليه في قوله تعالى ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ الانشقاق: ١٨

<> وهناك نوع من شجر الليمون يُؤْتي ثمرته مع نهاية الشهر القمري ، ويُقال له : ليمون قمري ، فما هو سر ارتباطه بالقمر ؟؟

إذاً ، فالقمر له تأثير على الإنسان والحيوان والنبات إذا اتَّسق ، أي اكتمل ، ولكنه لا يُمَاثل تأثير الشمس ، إنما هو تأثير ذو مستوى مخصوص تتوجه فعاليته إلى تحقيق معنى الحياة على نظام مغاير لنظام الشمس ، مثلما هو حال الليل والنهار اللذين يتعاقبان على الأرض ، ويتأسس على كلٍّ منهما أحوال وجودية مخصوصة .

<> وقد قرن المولى عز وجل بين الشمس والقمر في فعالية الضوء ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى

﴿ جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ يونس : ٥ . فكان هذا الاقتران إشارة صريحة إلى فعالية نور القمر . وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴾ نوح : ١٥ – ١٦ .فلم يجعل الله الشمس{سراجاً} إلا لتكون الأرض صالحة لمعاش الإنسان ، وهو ما يُوْجب أن يكون نور القمر مُدْرجاً في نفس هذه الغاية .

الثنائية الثانية : النهار والليل

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ ﴾ الشمس: ٣ – ٤

هذه هي الثنائية الثانية من جملة الثنائيات الواردة في السورة ، وهي ثنائية تذكر النهار والليل ، وهما ضدان ، ولكنهما ليسا ضدين متنافرين ، بل ضدان تكامليان ، يكمل كلٌّ منهما الآخر في رسم آفاق حياة الإنسان في الأرض ، فهما يمضيان على نفس النسق الذي مضت عليه الشمس مع القمر ، كلٌّ منهما يتلو الآخر في مباشرة الأرض ، وكلٌّ منهما له خصائص يختص بها دون الآخر في وجه التأثير على الأرض وعلى أحوال ما فيها من أحياء .

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ {جلاها} التجلية هي الكشف ، ولكنه ليس كشفاً من ستر كامل ، بل من بعض الستر ، كالمرآة التي علاها شيء من الغبار بدون أن تفقد خاصية إظهار ما يُعْرض عليها ، فإذا أزلت عنها الغبار فقد جلوتها ، لتكون بذلك أبلغ في إظهار ما يُعْرض عليها ، وقريباً من هذا المعنى كان النهار مجلياً للشمس ، فكيف تتأتى هذه التجلية ؟

من الثابت أن النهار أثر من آثار الشمس ، فكيف يجليها وهو محكوم بها ؟ هذه القضية جعلت أقوال العلماء تتعدد في بيان المعنى ، ولكن لا شيء منها يمسك بزمام القضية ؛ لأن بيانها مرهون بمستوى الحقائق العلمية المتعلقة بضوء النهار ، فكيف ينتشر ضوء النهار ؟

إن ضوء النهار الذي يلوح لناظرينا لا يصل إلينا من الشمس بشكل مباشر ، إنما يصل إلينا بواسطة التراب العالق في الغلاف الجوي وفق نظرية سمّاها العلماء المعاصرون باسم " نظرية الحيود " وذلـــك أن الغلاف الجوي لا يخلو من ذلك التراب إلى علوّ خمسة كيلومترات ، وهذا التراب ليس كحبات التراب الموجود على الأرض ، بل هو حُبيبات يبلغ قطر الواحدة منها 1000/1 من المليمتر ، فهي لا تُرَى بالعين المجردة ، والغلاف الجوي لا يخلو أبداً من هذا التراب حتى وهو في أشد حالات الصفاء ، وهو الذي يشتت أشعة الشمس {يُحَيّدها} في جميع الاتجاهات ، فيملأ الدنيا نوراً ويصنع ضوء النهار .

والذي دلّ العلماء على هذه الحقيقة هو أن رواد الفضاء لاحظوا عندما تجاوزوا مستوى ذلك التراب أن السماء صارت مظلمة رغم أن قرص الشمس كان ظاهراً ، فلولا ذلك التراب لما تجلى لنا في النهار ضوء الشمس .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾ الشمس نجم ملتهب مضيء أبداً ، ولذلك فإن الليل لا يغشاها ، إنما يغشى الكواكب المعتمة مثلما هو الحال مع الأرض ، تشرق الشمس فتظهر الأشياء للعيان ، فإذا غرُبت الشمس غشى الليل تلك الأشياء وأخفاها تحت عباءته السوداء ، وهو ما لا يسري على الشمس ، فكيف يغشى الليل الشمس ؟

إنه لا يغشاها في ذاتها ، إنما يغشاها بما قضاه الله من زوالها عن هذا المكان أو ذاك وحلول الليل محل ما كانت مشرقة عليه ، قال تعالى :﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ

ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ القصص: ٧١ – ٧٢ فلو شاء الله لما غربت الشمس عن مكان في الأرض ، وبالتالي لما كان هناك ليل ، ولكنه سبحانه قدَّر ليلاً ، فقضى بهذا التقدير أن يغشى الليل الشمس ، أي يغشى الموضع الذي كانت مشرقة عليه .

الثنائية الثالثة : السماء والأرض

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ ﴾ الشمس : ٥ – ٦

هذه الثنائية تجمع بين السماء والأرض ، وهما ضدان ، إلا أنهما ليسا ضدين متنافرين ، بل ضدان تكتمل بهما منظومة الحياة التي قدَّرها العليم القدير للإنسان في الأرض .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ السماء : اسم جنس يتوجه إلى كل ما كان سماء ، وفي اللغة يُقال : كل ما علاك فهو سماء ، فالغلاف الجوي الذي يتلوك مباشرة سماء ، والفضاء بما فيه من أجرام أيضاً سماء ، وصولاً إلى السموات السبع ، وكل ذلك تجمعه كلمة {السماء} .

﴿ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ ما : مصدرية ، تُؤول هي وفعلها بالمصدر ، أي : وبنائها ، فماذا في بناء السماء من جلال قَدْر لتكون من جملة ما أقسم به جل شأنه ؟

قال الله تعالى :﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ غافر : ٥٧

وقال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ النازعات : ٢٧ – ٢٩

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ الملك : ٣

إن الإخبار بأن خلق السماء أشد من خلق الناس قد يعطينا فكرة عن طبيعة خلق السماء ، وذلك أن الإنسان مُكَوّن من ذرات ، ومن هذه الذرات تتكون الخلايا ، ومن هذه الخلايا يتم بناء الجسد كله ، فكل ذلك يأتلف مع بعضه البعض في منظومة واحدة مترابطة على المستوى الذري ، وعلى المستوى الخلوي ، وعلى المستوى العضوي ، والإخبار بأن خلق السماء أشد من خلق الإنسان يستلزم أن تكون أجرام السماء ، على عِظَم خلقها ، مرتبطة مع بعضها البعض في منظومة واحدة ، تجعل من السماء ذاتاً واحدة مثلما هي ذات الإنسان ، وكذلك هي السماء الدنيا {الغلاف الجوي} جعلها الله سبع طبقات ، ولكل طبقة خصائص ثابتة ، وهذه الخصائص لا تمنع تلك الطبقات من الائتلاف في سماء واحدة ، بناها بناءً محكماً شديد التماسك ، لحفظ الإنسان وكل مظاهر الحياة من الإشعاعات الكونية ومن النيازك ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء : ٣٢

<> وقد ذكر أهل التفسير معنى آخر لكلمة { ما } وهو أنها اسم موصول بمعنى الذي ، إلا أنهم اعترضتهم مشكلة ، وهي أن {ما} تدل على غير العاقل ، وهو ما لا تجوز

نسبته إلى العليم الحكيم ، ولذلك لجأوا إلى القول بأنها بمعنى {من} ، وهو قول مخالف لنسق العربية من جهة ، ومن جهة أخرى أنه يتنافى مع حكمة استخدامه في الآية ، لذلك فإنه لا مناص من اعتماد دلالة { ما } على غير العاقل ، وهي في هذه الحالة لن تدل على العلي العظيم ، بل على ما بنى السماء ، فما الذي بنى السماء ؟

إنه أمر الله ، لأنه سبحانه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، أي أنه ألقى أمره إلى مادة خلق السماء والأرض ، فشرعت هذه المادة في تفاعلاتها ، وفق ما أودعه الله في أمر الخلق من قوانين ، إلى أن وصلت بها تلك التفاعلات إلى الحد الذي أراده سبحانه في خلق السموات والأرض ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾فصلت: ١١ . ولإيضاح هذا الوجه انظروا إلى ما ذكره العلماء في ولادة النجوم ، فأول أمرها أنها تكون سديماً {دخان} ثم يتواصل ذلك السديم في تفاعلاته إلى أن يُولد النجم ، فالذي بنى ذلك النجم هو الله ، ولكنه لم يعالج ذلك الخلق بيديه مثلما يفعل البشر في صنع الأشياء ، بل يُلْقي أمره {كن} إلى مادة الخلق ، وهذا الأمر يتضمن كل برامج التكوين ، وهو ما اصطلح عليه العلماء باسم القوانين الطبيعية ، وهذه القوانين ، أو قل : برامج التكوين ، هي التي تمضي عليها دلالة {ما} وحُقّ لهذه القوانين أن يقسم بها جل شأنه ؛ لأنها قوانين عظيمة ، وشاهد عظمتها أنها استوعبت خلق السموات والأرض ، فلم يلحقهما خلل أو قصور، فكانت أعظم شاهد على الخلاق العليم .

﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾قدّم الله ذِكر السماء لما لها من شرف وسمو على الأرض ، فالسماء دار الحق والأرض دار الباطل ، وقوله {وما طحاها} يمضي الكلام في صياغتها مثل ما قلناه في صياغة {وما بناها} فما معنى : طحا ؟؟

عامة المفسرين على أن طحاها بمعنى بسطها ، مثل : دحاها ، ومن ينظر في كتب التفسير

سيلحظ قدْراً من التردد في الجزم بهذا المعنى ، ومبعث هذا التردد هو وجود الطـــاء مكان الدال ، وقد كان بالإمكان اختيار {دحاها} مكان{طحاها}ولذلك كان اختيار {طحاها} إشارة إلى دلالة مخصوصة لا تحملها كلمة {دحاها} ، ولكي نقف على هذه الدلالة وجب الوقوف على معناها في اللغة :

طَحَاه طَحْواً وطُحُوّاً ، وطَحَى الشيءَ يَطْحِيه طَحْياً : بسطه {هما لغتان} : ضربه ضرباً طَحَا منه ، أي امتد .

وطَحَا به قلبُه وهمُّه يَطْحَى طَحْوَاً ذهب به في مذهب بعيد .

القوم يَطْحَى بعضُهم بعضاً أي يدفع .

ويُقال : ما أدري أين طَحا ، من طَحَى الرجل إذا ذهب في الأرض .

والبقلة المُطَحِّية : النابتة على وجه الأرض قد افترشتها .

- نلاحظ أن مواضع استخدام {طحا} لا يستقيم معها استخدام {دحا} فلا يُقال : دحا منه ولا دحا به قلبه ولا يدحو بعضهم بعضاً ...إلخ . وهو ما يُوجب أن تكون لكلمة {طحا} دلالة على البسط لا تؤديها كلمة {دحا} .

- وردت كلمة دحا في الحديث النبوي للدلالة على مد مساحة اليابسة وذلك في بدء التكوين ، وهو قول رسول الله ﷺ :{ كانت الكعبة قَشْعَة على الماء ، ثم دُحِيت الأرض من تحتها } . ووجه هذا الدحوهو أن البركان ينفجر من موضع اليابسة ، فتُشكّل الصُّهارة مساحة جديدة من اليابسة . ولكن هذه اليابسة الجديدة يابسة صخرية غير مستوية،تكثر فيها

النتوءات ، وهو ما لايتناسب مع معاش الإنسان وحركته في الأرض ، وهنا تأتي كلمة {طحا} للدلالة على علاج هذه الحالة . وهذا القول يحتاج إلى مسوغات تُجيزه ، وهي فيما يلي :

● هناك ظاهرة لغوية مُلْفتة للنظر ، وهي أننا قد نجد جملة من الأفعال الثلاثية تشترك في الحرفين الأولين وتختلف في الحرف الثالث ، ومع ذلك نجدها جميعاً تدور في فلك دلالي واحد وكأن اشتراكهما في الحرفين الأولين كان الأصل الذي انبثقت عنه هذه الأفعال . وقد أجريت هذا البحث على الحرفين : الطاء والحاء من {طحا} فوجدت ما يلي :

طَحَحَ : الطَّحُّ البسط ، وطَحْطَحَ الشيءَ : فرَّقَه وكسَّره إهلاكاً . ووجه الصلة بين المعنيين أن الشيء إذا كُسّر وفُرِّق اتسعت مساحته ، أي انبسطت، وهو المعنى الذي يتوائم مع ما ذكرناه من نتوءات الجبال البركانية في بدء التكوين ، وقع عليها التكسير والتفريق ليصبح موضعها بساطاً .

طَحَرَ : الطَّحْر قذف العين بقذاها ، وطَحَرت العينُ قذاها تطْحَره طَحْراً رمت به . فإذا كان الطَّحُّ يشير إلى قوة تُسَلَّط على الشيء فتُكسِّره وتُفرّقه ، فهاهو الطحر ، أيضاً ، قوة تُسَلّط على الشيء فتقذف به .

طَحَلَ : طَحَلَه يَطْحَلُه طَحْلاً أصاب طُحاله ، ولا يُصاب الطحال إلا إذا سُلِّطت عليه قوة أفسدته ، أو بمعنى آخر : أخرجته عن نظامه الذي كان عليه .

طَحَمَ : طَحْمَةُ السيل دُفَّاع معظمه ، ورجل طُحَمَة ، مثل هُمَزَة ، شديد العراك ، والمعنيان يشيران إلى قوة الاندفاع التي من شأنها أن تكتسح ما يعرض لها ، فتزيله عن مكانه .

طَحَنَ : معروف ، فحبة القمح تتوجه إليها قوة فتحطمها ، فإذا تحطمت اتسعت مساحة ما تشغله من مكان ، بل وزال عنها البروز الذي كانت عليه .

فبالنظر إلى كل ما سبق ندرك مدى ما بين تلك الكلمات من صلة ، وكأنها جاءت من أصل واحد ، تشير الشواهد إلى أنه الحرفين الأولين : الطاء والحاء ، فإذا عدنا إلى المعاني المذكورة في دلالة {طحا} وجدنا بينها وبين ما ذُكِر من دلالة هذه الأفعال تناسباً :

ضربه ضرباً طحا منه ، أي امتد . فبقوة الضرب حصل الامتداد .

طحا القومُ بمعنى تدافعوا ، والتدافع لايحصل إلا بقوة تتوجه إلى دفع الشيء . والبقلة المطحية التي افترشت الأرض توافق معنى طَحْو الأرض ، أي جعلها فراشاً بتمهيد سطحها .

الثنائية الرابعة : تسوية النفس وإلهامهاالفجور والتقوى

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ الشمس: ٧ – ٨

هذه هي الثنائية الرابعة ، وهي ثنائية تذكر الإنسان . ونلاحظ في نظام سرد تلك الثنائيات أنه اعتمد الترتيب الزمني ، فالشمس كانت مبدأ نظام المجموعة الشمسية ،ثم انفصلت عنها أجزاء عديدة عُرِفت لاحقاً باسم كواكب المجموعة الشمسية ، ومن بين هذه الكواكب الأرض وسماؤها . إذاً بُنِيَت السماء وطُحِيت الأرض ، أي أصبحت صالحة لوجود الإنسان ، خُلِق الإنسان {ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها} .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ جاءت كلمة {نفس}نكرة فدلّ ذلك على نفس مخصوصة من بين

النفوس ، قال المفسرون هي نفس آدم عليه السلام ، كأنه قال : وواحدة من النفوس . أو أراد كل نفس ؛ لأن التنكير يفيد التكثير . وكلاهما مقصود ، إذ أراد الله أن يُشَرّف آدم عليه السلام بالإشارة إليه في هذا السياق بدون أن يخرج ذريته من هذه المنظومة .

﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ إن كانت { ما } مصدرية أُوِّلت مع ما يليها بالمصدر أي وتسويتها ، وإن اعتبرت موصولة دلت على ما أودعه الله في كلمة { كن } من أوامر التخليق ، وانظروا في ذلك إلى نظام خلق الإنسان في بطن أمه ، فإن الله عز وجل لا يباشر شيئاً من ذلك ، إنما هي أوامره التي أودعها في نطفتي الرجل والمرأة اللتين تتحولان إلى ذلك الخلق الجليل{الإنسان} . وكلمة {ما} لغير لعاقل وهي بذلك لا تصلح للدلالة على الله تعالى ، بل على السنن والقوانين التي ينبني عليها خلق النفس ، وهي سنن عظيمة القدْر والمقام ، ولذلك أقسم بها جل شأنه . وهذا المعنى يتوافق مع تأويل {وما سواها } بالمصدر ...

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب ، أي أن إلهام النفس فجورها وتقواها جاء بعد تمام فعل التسوية ، وقد أُجْرِي على هذه الآية والآية السابقة لها نظاما الفصل والوصل ، ولكل منهما دلالة:

أما الفصل فهو ذلك الفاصل الرقمي المدرج بين الآيتين ، وتتوجه دلالته إلى حقيقة الكمال في خلق الله تعالى ، وهو ما تحمله دلالة التسوية ، أي أن إلهامها فجورها وتقواها خارج عن دلالة تسوية النفس ، فهو أمر طارئ عليها . أما الوصل فهو في الربط بين دلالتي الآيتين بحرف العطف الفاء ، فقد قضى الله لذلك الخلق السوي أن يكون مشتملاً على الفجور والتقوى ؛ لما قضاه من ابتلائه بالاختيار بين الكفر والإيمان والطاعة والمعصية ، وهو ما أشرت إليه من دلالة {الكَبَد} المذكور في سورة {البلد} .

● وقد ذُكِر أن معنى {ألهمها}هو عرَّفها ، وهو ليس بالتأويل الشافي ، فملائكة الرحمن يعرفون طريق الفجور من طريق التقوى ، ومع ذلك فهم لا يعصون الله أبداً . ولذلك وجب أن تذهب دلالة {ألهمها} إلى اشتمال النفس على الحيثيات التكوينية التي تضعها في موضع الاختيار بين أن تكون فاجرة أو أن تكون متقية ، وهو ما أشارت إليه الآيتان التاليتان لهذه الآية . فتزكية النفس وتدسيتها اختيار من الإنسان ؛ لأنه يحمل في نفسه توجهاً إليهما معاً ، لا إلى واحد منهما .

الثنائية الخامسة : تزكية النفس وتدسيتها

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس: ٩ – ١٠

هذه هي الثنائية الخامسة ، وهي ليست مستقلة عن الثنائية السابقة ، بل هي استطراد في ذكر أمر النفس :

● {أفلح ، خاب} ضدان ، ومعنى أفلح : فاز ، إلا أنه بهذا المعنى قد يقصر عن بيان مدى التضاد بينه وبين : خاب ؛ وذلك أن الخيبة صفة تُطْلق على الرجل إذا عاد بدون أن يحقق غايته التي توجه إليها ، فيُقال : رجع خائباً ، ومن ذلك المثل : رجع بخفي حنين . واعتباراً لهذا المعنى فإن {أفلح} تعني تحقيق الغاية ، وهذان المعنيان هما المرادان ، إذ فيهما مبدأ الإنسان ومآله ، وذلك أن الله تعالى أراد أن يستخلف الإنسان ، فكان هذا الاستخلاف هو المهمة التي كُلِّف الإنسان بأدائها في الأرض ، قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ هود : ٦١ وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الملك : ٢

فإذا انقضى أجل الحياة الدنيا رجع الإنسان إلى ربه ، فالناس ساعتئذ فريقان : فريق أفلح في أداء مهمة الاستخلاف ، ورجع إلى ربه بذلك الرصيد الذي سيجعله من الفائزين بالجائزة {الجنة} وفريق رجع إلى ربه خائباً ، أي خالي الوِفاض ، لم ينل من ذلك الرصيد شيئاً .

● {زكَّاها ،دَسَّاها} كلمتان ، كلٌّ منهما تختزل حياة الإنسان من أوان بلوغه سن التكليف إلى حين مماته ، وفيما يلي بيان لكل منهما :

زكاها : التزكية هي الطهارة ، وبالطهارة تكون البركة والنماء . وللطهارة وجهان : قلبي وعملي ، أما القلبي فهو الإيمان بالله وحده ، وأن لا تشرك به شيئاً . وأما العملي فهو الامتثال لأمر الله وترك ما نهى عنه ، فمن فعل ذلك فقد زكَّى نفسه أي طهَّرها ، ومع هذه الطهارة تكون البركة والنماء في الدنيا والآخرة .

دسَّاها : الأصل دسَّسها ، من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فأُبْدِلت سينه ياء ، كقولهم : قصَّيت أظفاري ، وأصله قصصت أظفاري ، وكذلك قولهم في تقَصَّص تقَصَّى .

وأخذ أهل التفسير هذا المعنى {إخفاء الشيء في الشيء} فقالوا في تأويل الآية : دسّ نفسه في جملة الصالحين وليس منهم ، وهو تأويل مردود ، لأنه يتوجه فقط إلى من كان منـــافقاً ، ويذر الكافرين والعصاة . وقالوا أيضاً في تفسيرها : هو الكافر يحرص على إخفاء نفسه عن الناس ؛ خجلاً من معاصيه . وهذا التأويل ، أيضاً ، تأويل مردود ؛ لأن الكافر لا يبالي ما فعل ، وليس بعد الكفر ذنب . فما هو وجه الدلالة في دسَّاها ؟

إنه ما يشير إليه قوله تعالى :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ فمن أسس استواء النفس أنها خُلِقت

في الأصل للعبادة ، قال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات : ٥٦

وقال تعالى :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ الروم : ٣٠ وقال رسول الله ﷺ : { مامن مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ويُنصِّرانه ويُمَجِّسَانه } رواه البخاري ومسلم

فالنفس سوية بحكم ما فُطِرت عليه ، فإذا آمن الإنسان بالله واتقاه فقد زكَّى نفسه ، أي طهرها من دلالة الفجور ، وجعلها على الوجه الذي فُطِرت عليه في حدود ما يسره الله للإنسان في الأرض ، وأما إن كان من الكافرين أو ممن أسرف على نفسه في المعاصي فقد دسَّ تلك النفس السوية تحت ركام ما هو عليه من مخالفة للفطرة التي خُلِق عليها .

وهذا الوجه في دلالة {دساها} يشبه وجه الدلالة في كلمة : كفر ، وذلك أن الكفر في اللغة يعني التغطية ، ووجه سريان هذه الدلالة على الكافر أن نفسه مجبولة على الإيمان ، فإذا اختار أن لا يؤمن فقد كفر ، أي غطَّى هذه الفطرة بذلك النكران . فكل نفس مجبولة على الإيمان ، وهو قوله تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ الأعراف : ١٧٢ فكل نفس مشتملة على ذلك الميثاق الذي كان في عالم الذر ، فإذا تحقق الوجود الدنيوي للإنسان ثم كفر بالله كان هذا الكفر تغطية لذلك الميثاق {الفطرة} وهو معنى الدسّ .

ومن الاستخدامات اللغوية المراعية لهذا المعنى في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ البقرة : ٢٨٦ فما تفعله النفس مما ينفعها عند الله {لها} وما تفعله من

سوء {عليها} وقد استُخْدم فعل الكسب مع الحالتين ، إلا أنه جاء مجرداً من الزيادات {كسب} مع ما يفعله الإنسان من خير ، ومع ما يقترفه من سوء زِيْد ألفاً وتاء {اكتسب}فكان تجرد الفعل دالاً على أن فعل الخيرات هو من الأصل الذي جُبِلت عليه النفس ، فهو ليس طارئاً عليها ، أما زيادة الألف والتاء فأفادت تكلف الفعل ، أي أنه ليس من جنس ما جُبِلت عليه النفس الآدمية . وخروج الإنسان عن هذه الفطرة لا يُعَدّ نقْضاً لهذه الحقيقة ، إنما هو خروج محدود يتحقق من خلاله معنى ابتلاء الإنسان بالاختيار بين الكفر والإيمان ، أو بين التزكية والتدسية .

ثانياً : نظام المجموعات

كنت قد ذكرت أن هذه الآيات العشر قد أُدْرجت في نظامين ، ذكرت فيما سبق نظام الثنائيات ، أما النظام الثاني فهو نظام المجموعات ، وهذا موضع بيانه :

المجموعة الأولى	المجموعة الثانية
وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾	وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾
وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾	وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾
وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾	وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾
وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾	فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾
قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾	وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

الآيات المدرجة في كل مجموعة جاءت متجانسة مع بعضها البعض ، تدور في فلك واحد فهي معنية بتفصيله ، وبيان ذلك فيما يلي :

المجموعة الأولى

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ الشمس منبع النور ودليله .

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ والنهار من منظومة النور ، لأنه مرتبط بالشمس .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ والسماء تحمل دلالة السمو والارتفاع ، وهي مسكن الملأ الأعلى ، الملأ النوراني .

﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ النفس السوية نفس نورانية ، وذلك قبل أن يلهمها الله فجورها وتقواها .

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ النفس الزكية نفس نورانية ، لتلبسها بالنور الذي أنزله إلى الناس ، قال تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ إبراهيم : ١

المجموعة الثانية

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ القمر جِرْم مظلم لا يُشع نوراً ، وما نراه من ضوئه إنما هو انعكاس لضوء الشمس .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾ الليل قرين للقمر ، أو أن القمر لا تتجلى صورته إلا ليلاً.

﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ والأرض كوكب مظلم ، ثم هي مظلمة بما يُرْتكب فيها من كفر وشرك وآثام ، على غير ما هي عليه السماء .

﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ إذا كانت النفس السوية شاهداً على النورانية لخلوها من التوجه إلى المعصية ، فإن إدراج الفجور فيها يجعلها مشتملة على الظلمة .

﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ تدسية النفس هي سوقها إلى الكفر أو إلى المعصية ، وقد مرت معنا آية { إبراهيم } التي تذكر الكفر والضلال بلفظ الظلمات ، وتذكر تزكية النفس بلفظ النور .

2 – شاهد جواب القسم

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَىٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ الشمس : ١١ – ١٥

هذه الآيات ليست جواباً للقسم المتعدد في المقطع السابق ، إنما هي شاهد على جواب القسم المحذوف ، وتقديره على ما ذكره الزمخشري : لَيُدَمْدِمَنَّ الله عليكم ، أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام .

والحكمة من عدم التصريح بجواب القسم أن الله عز وجل إذا أقسم على فعل شيء

فإن هذا الشيء واقع لا محالة ، ولذلك لم يُذْكر الجواب ، لأنه لو ذكره لكان لزاماً أن يدمدم على أهل مكة كما دمدم على ثمود ، ولكنه سبحانه لم يُرِد ذلك ، ولهذا لم يذكر الجواب ، إنما ذكر ما أنزله بثمود ، وكأنه بذلك يقول لأهل مكة : لو أردت أن أدمدم عليكم كما دمدمت على ثمود لفعلت ، فكونوا على حذر من أن يصيبكم مثل ما أصابهم . وهي بالتالي رسالة دائمة الحضور للذين يكذبون بدين الله ويتمادون في التصدي له .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ الشمس : ١١ - ١٢

ثمود : هم قوم صالح عليه السلام كذبوه و لم يؤمنوا به ، فلم يأخذهم الله بذلك التكذيب ، بل أمهلهم وجعل لهم فرصة أخيرة بالناقة التي أرسلها إليهم، قال تعالى على لسان صالح عليه السلام :

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ هود : ٦٤ . فكذبوه فيما قال ومسوها بسوء فأخذهم عذاب قريب ، وقد أشارت الآية الثانية إلى هذا المعنى بكلمة {إذ} وهي ظرف زمان ، أي أن قوله﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ هو ذلك الزمان الذي انبعث فيها أشقاها ، وهو الذي عقر الناقة .

﴿ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ الباء للسببية ، أي أن تكذيبهم بآية الناقة كان بسبب ما هم عليه من طغيان ، والطغيان هو تجاوز الحد ، ووجه طغيانهم أمام هذه الآية أن خروج الناقة من الصخر كان كفيلاً بردع المكذب عن تكذيبه ، لكنهم لم تؤثر فيهم هذه الآية ، فقاموا بعقرها .

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ ﴾ ذكرت قبل قليل أن {إذ} ظرف زمان للفعل {كذَّبَت} وهذا لا يمنع من أن تكون{إذ} ظرفاً لقوله {طغواها} أي : كذبت ثمود بطغيانها الكائن في زمن انبعاث أشقاها ، وليس بين الوجهين تعارض ، فتكذيبهم بأمر الناقة إذ عقروها كان طغياناً ، وطغيانهم الذي استحقوا به الدمدمة هو تكذيبهم بأمر الناقة ومن ثَمّ عقرها .

والانبعاث لا يكون إلا من سكون وارتباط ، ومن ذلك قولهم : بعثت البعير ، إذا أطلقته من بروك أو عقال ، وفي هذا الإطار جاءت حركة {أشقاها} وذلك أن ثمود أحجمت عن المساس بالناقة ؛ لما رأوه من ظهورها العجيب ، إلا تسعة رهط كانوا أكثر الناس فساداً ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ النمل : ٤٨ بل إن هؤلاء الرهط لم يجدوا بينهم من يجرؤ على عقر الناقة إلا واحداً ، ذُكِر أن اسمه قدار بن سالف ، قال تعالى : ﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ القمر : ٢٩

﴿ أَشۡقَىٰهَا ﴾ هو المذكور قبل قليل ، ووُصف بأنه أشقى القوم لسببين ؛ الأول : أنه الوحيد الذي مس الناقة بسوء ، والثاني : أنه يحمل وحده وزر إهلاك قومه جميعاً ، إذ جر عليهم عذاب الاستئصال بما اقترفت يداه .

﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ﴾ الشمس : ١٣

﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ ناقة : مفعول به منصوب على التحذير ، أي احذروا ناقة الله ، ووجه الحذر منها أن مسّها بسوء سبب لنـــزول العذاب .

﴿ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ سقيا : معطوفة على كلمة {ناقة} أي : واحذروا سقياها ، ووجه الحذر من ذلك أن الاعتداء على سقياها أيضاً موجب لغضب الله ونقمته ، وقد جعل الله للناقة سقيا مخصوصة ، قال تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ الشعراء : ١٥٥

وإضافة كلمة {ناقة} إلى لفظ الجلالة يجعل لتلك الناقة حرمة وقدسية من بين نوق الأرض جميعاً ، وكذلـــك هو الشأن مع كل ما يُضاف إلى الله عز وجل : بيت الله ، رسول الله ، شهر الله ، ناقة الله .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴾ الشمس : ١٤

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ لم يصدقوا تحذيره إياهم . ونلاحظ أن فعل التكذيب ذُكِر مرتين ، وعلة التكرار أن الآيات بصدد بيان مستويات التكذيب ، ففي قوله :﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴾ يقصر دلالة التكذيب على انبعاث أشقاها ،أي وهو يعلن أنه سيعقر الناقة ، وعندما علم صالح عليه السلام بأمره حذرهم من جديد ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ فأصروا على تكذيبه ، ثم جسدوا ذلك التكذيب بعقر الناقة ، أي بقطع قائمتيها الأماميتين بالسيف .

﴿ فَدَمۡدَمَ ﴾ دمدمت الشيء إذا ألزقته بالأرض ، ودَمَّهم يَدَمُّهم دمًّا طحنهم فأهلكهم، وكذلك دمدمهم ودمدم عليهم ، فماذا قال الله عز وجل فيما أصابهم من عذاب :﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ القمر : ٣١

{هشيم المحتظر} العشب اليابس المتهشم المتكسر ، والمحتظر : الذي يكون في حظيرة الدواب ، ومع وطء البهائم له يزداد تكسراً وتهشماً . والذي أهلكهم وجعل أجسادهم على هذه الصفة هو{صيحة} والصيحة صوت من الأصوات ، فهل يقتل الصوت الإنسان ويهشم عظامه ؟

إذا انطلق الصوت حرّك الهواء فيما حوله ، وجعله موجات متذبذبة ومتنوعة ، فإذا وصلت إلى طبلة الأذن هزتها هزات متفاوتة ، وذلك تبعاً لمستوى الصوت ونوعه . وذكر العلماء أن المستوى الذي تستقبله الأذن محصور بين " 20 " هرتز و "20" ألف هرتز ، وما دون الأدنى وما فوق الأعلى لا يسمعه الإنسان . وأثر الصوت يشعر به الإنسان ، وذلك أنه إذا كان عالياً شعر الإنسان بألم في إذنه ، ومبعث هذا الألم أن الموجة الصوتية تقوم بدفع قوي لطبلة الأذن ، ولو أن الصوت تجاوز الحد الذي تحتمله الطبلة لتمزقت ، فكيف إذا كانت الموجة الصوتية أعلى وأعلى وأعلى ؟ حتماً سيمتد أثرها إلى ما وراء الطبلة ، أي إلى تهتك خلايا الدماغ وتحطم العظام .

وفي بعض قراءاتي وجدت أن العلماء التفتوا إلى قوة الصوت فأغراهم هذا الالتفات بالبحث في إمكانية استخدام الصوت في إفراغ الشاحنات الضخمة من أحمالها ، بل وفكروا في استخدام الصوت سلاحاً من أسلحة الحرب .

﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ ذكرنا قبل قليل أن الدمدمة تعني الإلزاق بالأرض ، وهو ما ينسجم مع دلالة التسوية ، إذ لم يبق أحد من ثمود قائماً على وجه الأرض ، إذ صُرِعوا جميعاً فأصبح وجه الأرض مستوياً بأجسادهم .

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ الشمس: ١٥

قال النسفي :ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة ، أي فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعة من أحد . وهذا التفسير هو مدار ما ورد لدى غيره ، وقد نُسِب هذا التفسير إلى ابن عباس .

● ولكن الأمر يستدعي مراعاة ما يليق بجلال الله تعالى عند تفسير هذه الكلمة ، وذلك أن الخوف يكون شعوراً يتردد في النفس لأمر مترقّب قد يأتي على وجه فيه قدْر من الضر أو الأذى أو الخسران ، وهذا الشعور ماضٍ على المخلوق ، أما الخالق عز وجل فلا يمضي عليه ذلك ، لأنه محيط بكل شيء علماً ، فهو القوي العزيز الذي يعلم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون ، ولذلك فإن قوله { لايخاف } تمضي دلالته إلى أنه لايبالي بهم ، وحدُّ هذا التفسير في الواقع الدنيوي أن الإنسان يعتريه الخوف إذا كان على ترقّب لأمر يرجوه أو يخشاه ، فإن هو لم يُبَالِ بذلك الأمر فإنه حتماً لن يكون مُشْتملاً على الخوف .

فقوله سبحانه :﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ يتوجه إلى أنه سبحانه لايبالي بما يلحق القوم الذين يكذبون بآياته ، وفي ذلك إنذار لأهل مكة بأنه قد لا يبالي بهم مثلما فعل مع ثمود ، وعدم المبالاة بهم مُفْضٍ إلى الهلاك ، إذ أن كل عافية يتقلب فيها الإنسان ، مؤمناً كان أو كافراً ، إنما هي بسبب أن الله يُبالي بهم ، أي يتعاهدهم برحمته .

وفي هذ المعنى الذي ذكرته من دلالة :﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ قول رسول الله ﷺ : { إن من قلب ابن آدم بكل وادٍ شُعْبة ، فمن اتَّبع قلبُه الشُّعَبَ كلها لم يُبالِ الله بأي وادٍ أهلكه . ومن توكل على الله كفاه الشُّعَبَ } رواه ابن ماجه .

الخط البياني

المجموعة الأولى	المجموعة الثانية
وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾	وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾
وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾	وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾
وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾	وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾
وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾	فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾
قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾	وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

ثنائيات القسم

كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾
فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾
فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم
بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾

شاهد جواب القسم